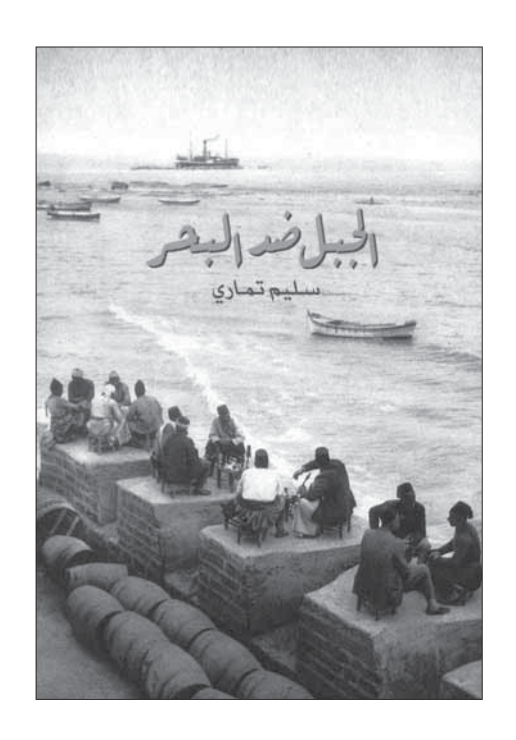
مراجعة في كتاب
الجبل ضد البحر

ساري حنفي



يعتبر كتاب سليم تماري من أهم دراسات علم الاجتماع الحضري في عالمنا العربي، وما أقلها. فقد امتزج فيه بطريقة رائعة العمق النظري مع دراسات الحالة المنبثقة من مذكرات بعض الشخصيات التاريخية الفلسطينية التي عاشت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وخلافا لمعالجة الباحثين والمفكرين العرب لموضوع الحداثة، الذي غالبا ما يتم بشكل مجرد ومنمط، واقعا في شرك التعميمات التي تأخذ المجتمع العربي أو الفلسطيني كوحدة دراسية، قام تماري بتحليل صورة معقدة وملونة وغير خطية لدخول الحداثة إلى مجتمعاتنا، موضحاً تفاوت الصورة بين المدينة المتروبولية العواصم والمدينة المريفة، والريف المدن، والجبل والبحر.

يتميز مفهوم الحداثة عند سليم تماري، على شاكلة المفكر الفرنسي ميشيل فوكو، على أنها حداثة منبثقة من التراث وليس ضدها. فشخصيات مثل عمر الصالح هي شخصية إقطاعية مقدسية، لكنها حديثة باعتقاداتها الفكرية والدينية، وذات انتماءات معقدة قوية عثمانية وعربية. وعلى عكس كثير من المؤرخين الذين يربطون دخول الحداثة إلى العالم العربي بالوجود الاستعماري الأوروبي، فإن تماري يظهر أن هذا الدخول كان قومياً وإلى حد ما معولماً. لقد أدى وجود تكنولوجيا ووسائل اتصالات من بداية القرن العشرين إلى ترسيخ قاعدة ثقافية علمانية ذات طبيعة تجارية ومعزولة عن رقابة الجماهير.

وقبل أن ينقلنا إلى تحليل معمق حول القدس، يحلل تماري إشكالية الحضر في فلسطين وتميزه بغياب الحاضرة المدينية. فقد لاحظ أنَّ مدن الضفة الغربية وقطاع غزة

هي من النوع الصغير التي تختلف في طبيعتها كثيراً عن المدن الكبرى.

فبسبب تشرذم التشكيلات الاجتماعية التي كانت تتبوأ مواقعها في المدن (هجرة، غياب برجوازية صناعية، ضعف القطاع الإنتاجي)، تشكلت المدن بصفتها امتدادا للريف، مما خلق ديناميات ضبط وتسلط اجتماعي نجده في كل من الشرق والغرب. لكن ما يميز فلسطين هو طبيعة الرابط بين الريف والمدينة، والذي أنشأ نظاما معياريا في المدن يتسم بثقافة فلاحيه تتواجد في سياق حضري، وباستمرار دور العائلة الممتدة في تأمين العمل وتلبية الاحتياجات الاستثمارية لأفراد الأسرة. وهذا ما يؤكد الخلاصة التي وصلت لها في دراستي للريادية في الأراضي الفلسطينية (كتاب: هنا وهناك نحو تحلل للعلاقة بين الشتات والمركز). وفي رأي تماري، فقد شكل ذلك التربة الخصبة لانتشار التزمت الديني في المدينة، الذي أفرز لاحقا نجاح حركة حماس في تعبئة أبناء الريف والمدينة والمخيمات على السواء: "وفي فلسطين فإنَّ ضياع المراكز المتروبولينية خلال الحرب شكل ضياعاً للمدينة والبوتقة المدينية بصفتها إنتاجا ثقافياً وارداً من المدن الكبيرة، وبدلاً من ذلك فإن المدن الصغيرة باتت مسرحاً لتشكيل النظام الأخلاقي للمقاومة السياسية، بالإضافة إلى إعادة صياغة المعايير السلوكية. وبهذا المعنى، فإن النظام القيمي في المدن الصغيرة تحول ليصبح المعيار القيمي للمجتمع بشكل عام" ص ٣٧.

ويرصد سليم تماري التحول في الوجدان الحضري في مدينة القدس، وذلك من خلال مقارنتها بمدن متروبوليتية أخرى كدمشق وبيروت، ولكن من خلال دراسة إشكالية التمايز (وفي بعض الأحيان الصراع) التاريخي بين ثقافة الساحل وثقافة الجبل. وإذا كان البحر تاريخياً رمزا للانفتاح على العالم الخارجي، فإن ثقافة البحر – إن كان بالإمكان تمييزها عن ثقافة مدن الساحل– ما زالت تستحوذ على افتتان ومعاداة جانب كبير من المجتمع العربي. وفي حالة فلسطين، حسب تماري، تبدد هذا العداء نتيجة تدمير المجتمع الساحلي وطرد سكان مدنه وقراه وسلخهم عن جذورهم الطبيعية. نتج عن ذلك بروز نزعة الحنين الرومنطيقي إلى الساحل في أدبيات المهاجرين وإعادة تشخيص الطقوس الشعبية (كما هو الحال بالنسبة للمواسم) المبتورة عن نطاقها الاجتماعي. أما في بقية المجتمعات الشرق أوسطية، فقد تداخلت الحداثة والهجرة الطبيعية (بقدر ما هي هجرة طبيعية) في إحداث تغيير جذري في موقف المجتمع يتلخص في تبني مواقف برجوازية تحررية باتجاه البحر كمصدر للمتعة وانعتاق الجسد من القيود الاجتماعية.

إذن، فثقافة البحر هي ثقافة معاداة، أحيانا، أو الافتتان في الأحيان الأخرى. من هنا، لا يمكن أن نضع حدود قاطعة بين ثقافة الجبل وثقافة البحر. وهذه النتيجة المنطلقة من التحليل الثقافي تتطابق مع تحليل بشارة دوماني للاقتصاد السياسي لجبل نابلس، حيث وجد أن هناك تحالفات وعلاقات وطيدة تشكلت بين فلاحي الجبل مع المدينة الساحلية. هذه التحالفات أقيمت ضد سيطرة إقطاعي مدن الجبل (نابلس وجنين).

إضافة إلى ذلك فقد شكلت القدس حالة استثنائية مقارنة مع مدن جبلية أخرى من حيث أنها تحولت من بداية القرن العشرين إلى مركز مهم لشريحة مؤلفة من موظفي الدولة والجيش، ومجموعات مهنية وأنظمة مدنية للتعليم (عثمانية وإرساليات). ثم يرصد

الكاتب التحول في الوجدان الحضري المقدسي من خلال أدب السير والسير الذاتية. وهنا فقد كتب عن ثلاثة أنواع من الخطابات:

> المذكرات (التي تدون في كهولة الكاتب)، والسيرة الذاتية (ذات الهيكل السردي الأكثر تماسكاً)، واليوميات (وهي أكثر هذه الأنماط حميمة ومباشرة لأنها – في الغالب لا تدون للنشر). تسمح لنا هذه الكتابات بأن نعاين نمو أنماط سلوكية وقيمية جديدة، واضمحلال تقاليد وعصبيات تقليدية من خلال معايشتها لأفراد مقدسين مبدعين في حقبتين أساسيتين من تاريخ المدينة المعاصرة، وهما: تجاوز مرحلة اللامركزية العثمانية، وبروز الكيانية الفلسطينية الإقليمية– أي المنفصلة عن بوتقتها في القومية العربية والقومية السورية.

في الفصل السادس من هذا الكتاب يناول الكاتب السيرة الذاتية لواصف جوهرية (١٨٨٧ – ١٩٦٧)، وهو موسيقار شعبي، نشأ في حارة السعدية من البلدة القديمة. وأشد ما يثير للقارئ هو أجواء التسامح الديني والتعدد الثقافي في مدينة القدس في بداية القرن العشرين، هذه الأجواء التي يصعب استشفافها في الأجواء السائدة اليوم من الانعزالية الاثنية والأصولية الدينية. لقد كان هناك جمعية الهلال الأحمر العثمانية التي ضمت المسلمين والمسيحيين واليهود. وتطالعنا قصص يوميات واصف الجوهرية لترسم صورة انخراط ايجابي في شؤون الجيرة، حيث كانت ديانتها اعتباراً ثانوياً بالنسبة إلى التراث المديني الأوسع. لقد تحدى الجوهري المفهوم المبسط لتركيب الأحياء، القائم على تنظيم العلاقة بين المقدسيين على أساس بيئتهم الدينية والإثنية. فلم يكن هناك تطابق واضح بين الأحياء والديانة. وقد ساد الاختلاط في السكن وفي المشاركة النشيطة في الأعياد الدينية، خالقا بذلك تضامنا يضعف ثبات النظام الطائفي الموروث. كما أن الحدود الطائفية قد تزعزعت، آنذاك، من جراء نهوض الحركة الوطنية في فلسطين: بداية منذ سياق الحركة الدستورية العثمانية في نهاية القرن، وبخاصة بعد انقلاب سنة ١٩٠٨، الذي تلقى الكثير من الدعم من دوائر المثقفين في القدس.

هذا الجو المنعش من التسامح لا يمكن أن يخفي التناقضات التي كانت موجودة آنذاك بين المشروع الصهيوني الذي تبناه معظم اليهود، وبين المشروع العربي، ولا بعض التناقضات بين المسيحيين والمسلمين. ففكرة التسامح تحمل الألم في ثناياها دائماً. فأنت تسامح وتتسامح ليس بشكل طوعي دائماً.

وينقلنا سليم تماري في أجواء بداية القرن العشرين إلى سيرة ذاتية غريبة عن التطورات العربية الحالية عن اليهود في فلسطين، وهي سيرة اسحق الشامي، الذي اعتبره الناقد أرنولد براند على أنه من أحد المع كتاب فلسطين آنذاك. ولعل أعمال الشامي تعكس ظاهرة في طريق الزوال؛ وهي هوية العربي اليهودي. وقد نوّه تماري عن حق إلى أن هذا التعبير (العربي اليهودي) أصبح اليوم مفهوماً مشبعاً بالتناقض، أو كأن صاحبه يعاني

من انفصام الشخصية. لقد منعت الإيديولوجية الصهيونية العرب اليهود من النطق بالعربية أو من التماثل القومي مع أبناء جدودهم كما يظهر ببراعة فيلم (أنس بغداد) للمخرج العراقي سمير، والذي تناول معضلة اليهود العراقيين في إسرائيل: شمعون بلاص وسامي ميخائيل وسمير نقاش وإيلا شوحط. لكن المشكلة كانت مع كل أسف أيضاً في كيفية تعامل العرب مع هؤلاء ومنع أي إمكانية اتصال بهم، وكأن الإنسان لا يمكن أن ينتمي قومياً إلاَّ إلى جهة واحدة.

وتشكل معضلة اسحق الشامي مثالاً جلياً لهذه الإشكالية. فقد وضع وعد بلفور اليهود العرب والسفارديم، الذين كانوا يموضعون أنفسهم ضمن الثقافة العربية في فلسطين (وفي الدول العربية)، في موقف لا يحسدون عليه. وكانت مقاومتهم لإضفاء الهوية الصهيونية عليهم في الغالب مقاومة ثقافية وليست إيديولوجية. إذ كانت الحركة الصهيونية، من جهة أخرى، تشكل إغواء الحداثة لبعضهم، الذي هو أيضاً إغواء الثقافة الأوروبية والفكر الاشتراكي.

وفي النهاية يمكن أن ناسف بأن سليم تماري لم يقم بربط فصول الكتاب، بشكل كاف، بالإشكالية الرائدة المبلورة في الفصلين الأول والثاني. لكن رغم ذلك، فإن هذا الكتاب من الدراسات القليلة المعمقة لحضرية المشرق العربي، التي تجاوزت المفاهيم التطورية التبسيطية لنشوء المدينة العربية، مما يفسر تسامح الماضي وتزمت الحاضر.